الفلسفة البراغماتية وعلم الاجتماع الحضري-نموذج مدرسة شيكاغو-
Pragmatic Philosophy and Urban Sociology - Chicago School Model –

مبارك ايت خليفة، جامعة محمد الخامس، المغرب

ملخص: لا أحد من المهتمين بالفكر الفلسفي عامة، وكذا بالعلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع، يمكنه إنكار المكانة الفكرية والفلسفية التي تحتلها البراغماتية كنظرية فلسفية وعملية، أو بالأحرى كمدرسة قائمة الذات، وذلك راجع بالأساس إلى الزخم المعرفي النظري والميداني الذي خلفته وراءها، والذي لازال بريقه ساطع إلى يوم الناس هذا. ولعل هذا كله هو الذي دفعنا كباحثين في علم الاجتماع للوقوف على هذه المدرسة محاولين تبيان تأثيرها على مدرسة أخرى لا تقل أهمية عنها، وهي مدرسة شيكاغو، أو بالأحرى تأثيرها في علم الاجتماع الحضري بشكل عام، لذا نود من خلال هذه الورقة أن نبين بعض جوانب العلاقة بين الفكر البراغماتي والفكر السوسيولوجي في شخص مدرسة شيكاغو.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة البراغماتية، علم الاجتماع الحضري، مدرسة شيكاغو.

Abstract: No one interested in philosophical thought in general, as well as in social sciences, especially sociology, can deny the intellectual and philosophic position occupied by pragmatism as a philosophical and practical theory, or rather as a self-taught school, mainly due to the theoretical and field cognitive momentum that has left behind, People day this. Perhaps this is what prompted us as sociologists to find out about this school, trying to demonstrate its impact on another equally important school: the Chicago School, or rather its impact on urban sociology in general. In this paper, we would like to show some aspects of the relationship between pragmatism and sociological thought in urban sociology and discipline through the Chicago School.

Keywords: Pragmatic philosophy, Sociology Urban, Chicago School

مقدمة:

تعتبر البراغماتية من أبرز المذاهب الفكرية الفلسفية التي كان لها تأثير كبير في مجالات متعددة ولعل من أهمها علم الاجتماع، غير أن هذا المذهب البراغماتي لم يحظى باهتمام الباحثين والمفكرين في العلوم الانسانية بصفة عامة، مما جعله غير معروف بالشكل المطلوب وخاصة في العالم العربي، لكن ومع بداية القرن العشرين سيتخذ هذا المذهب الفلسفي مكانة أخرى مغايرة لما سبق، وخاصة من طرف السوسيولوجية، من قبيل سوسيولوجيا العمل، والصحة، والسوسيولوجيا الحضرية.

إذن لا أحد من المهتمين بالفكر الفلسفي عامة، وكذا بالعلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع، يمكنه إنكار المكانة الفكرية والفلسفية التي تحتلها البراغماتية كنظرية فلسفية وعملية، أو بالأحرى كمدرسة قائمة الذات، وذلك راجع بالأساس إلى الزخم المعرفي النظري والميداني الذي خلفته وراءها، والذي لازال بريقه ساطع إلى يوم الناس هذا، ولعل هذا كله هو الذي دفعنا كباحثين في علم الاجتماع للوقوف على هذه المدرسة محاولين تبيان تأثيرها على مدرسة أخرى لا تقل أهمية عنها؛ وهي مدرسة شيكاغو، أو بالأحرى تأثيرها في علم الاجتماع الحضري بشكل عام، لذا **فإشكال** هذه الورقة هو كالتالي: كيف أثرت الفلسفة البراغماتية في علم الاجتماع الحضري بصفة عامة ومدرسة شيكاغو على الخصوص؟، ومنه فإننا سنقف هنا على المحاور التالية:

المحور الأول: في الحاجة إلى ضبط المفاهيم:

يشكل تحديد المفاهيم الصعوبة الأولى التي يصادفها الباحث في العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلم الاجتماع على الخصوص؛ ويرجع ذلك بالأساس إلى غموض المصطلحات المتداولة في هذه الدراسات، وهذا الغموض قد يكون نتيجة لأسباب كثيرة ترتبط إما بإهمال تحديد تلك المفاهيم باعتبارها واضحة بذاتها، أو لصعوبة واستحالة تحديدها(بوشنفاتي، 1988، ص7)، لذلك غالبا ما يفضل الباحث في مثل هذه الدراسات، تجنب استعمال تلك المفاهيم والمصطلحات انتظارا منه اتضاح أمورها وحيثياتها، لذلك نصطدم في العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلم الاجتماع على الخصوص، بجدار سميك عندما نحاول أن نبحث في تحديد المصطلحات المتداولة فيه. لكن هذا كله لن يمنعنا من الحديث عن تلك المفاهيم، ونخص بالذكر هنا كل من الفلسفة البراجماتية ومدرسة شيكاغو، هذين النمطين من التفكير وجدا لهما تربة خصبة في أرض الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك سنحاول أن نقف هنا على دلالتهما مع رصد خصائص ومعاني كل واحد منها، مع محاولة مساءلة السياق الذي فرضهما على الفكر الأمريكي خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين.

أولا: الفلسفة البرجماتية: المعنى والخصائص:

أولا يجب أن نشير إلى أننا لسنا بصدد التأريخ لمذهب كبير فرض ولازال نفسه على المفكرين والابستمولوجين، إنه المذهب البراغماتي، لأن ذلك ليس هدفنا من هذا العمل، لكننا سنحاول قدر الإمكان تقديم قراءة عامة وشاملة عن تلك المدرسة التي أثرت في الفكر الإنساني عامة.

لا أحد من المهتمين ينكر أن الولايات المتحدة الأمريكية خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت في بداية تشكيل الهوية والوعي بالذات، من خلال استثمار الإمكانات

الفكرية والثقافية، وخاصة بعد فترة الحرب الأهلية، حيث كان الفكر الفلسفي بشكل أوضح والفكر السوسيولوجي بشكل أقل، مجرد انعكاس -ولحقبة كبيرة- من الزمن للتأثيرات الأوروبية باختلاف ألسنها ومذاهبها، حيث كانت أوروبا في تلك اللحظة تعيش في نوع من التطور والتقدم الفكري وخاصة على المستوى الفلسفي، والمتأمل للساحة الفكرية الأمريكية خلال أوائل القرن التاسع عشر، يلاحظ أن الفلسفة لم تؤخذ في أي قرن من قرون عالمنا المتحضر بصورة جدية بقدر ما أخذت بها في الولايات المتحدة الأمريكية، ولعل من رحم هذه المعاناة الفكرية والاجتماعية تم ميلاد نمط جديد من التفكير أخذ بمنهج جديد ومقاربة أخرى لتفسير وفهم الواقع المعيش، فشهد منتصف القرن التاسع عشر انتعاشا فلسفيا جاء رافضا للتقاليد الأوربية والأكاديمية السائدة، وجاء هذا كله على يد المهاجرين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانوا متأثرين بتطبيق نظريات علمية جديدة. من خلال إحداث قطيعة مع الفكر الفلسفي التقليدي والكلاسيكي، والنظر إلى الواقع الأمريكي نظرة أخرى مخالفة، وهذا ما تأت مع ركائز الفلسفة البرغماتية(تشالز بيرس، وليام جيمس، دون ديوي..).

إن مفهوم البراغماتية كنمط تفكير ليس من إنتاج الحقل السوسيولوجي بالمعنى الخاص للعبارة، وإنما تعود جذوره إلى تقاليد الفكر الفلسفي، كما أنه لا يمكن أن نتحدث عن برجماتية واحدة، بل إننا أمام أنماط مختلفة منها مثلا: البراغماتية الفلسفية(وليام جميس وجون ديوي)، والبرغماتية الألسنية والسوسيو-ألسنية من خلال أعمال كل من(سيرل، وغوفمان(ناشي محمد، 2014، ص7)، لكن رغم هذا التنوع على مستوى الفكر البراغماتي؛ إلا أنه يشترك كله في مبدأ عام واحد؛ وهو أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤديه الفكرة من نفع. وكان أول من أطلق عليها اسم "البراغماتية" المفكر الأمريكي "شارل بيرس"(1914-1834).

تحيل البراغماتية على كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني"**Pragma**"، وتعني العمل، وقد عرفها معجم" ويبستر Webster" الشهير، بأنها تيار فلسفي أنشأه "بيرس" و"وليام جيمس"؛ يدعو إلى اعتبار كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العملية، بينما عرفها المعجم الفلسفي بأنها مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار، إنما هو في قيمة عواقبها عملا، وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة والبراغماتي بوجه عام: "وصف لكل من يهدف إلى النجاح أو إلى منفعة خاصة" (مراد وهبة،1983، ص32)، بمعنى العملي والمنفعي هو أساس كل حقيقة ومعرفة، فالحقيقي هو النافع. وفي ذلك يقول "**بيرس**": إن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي أن يصور بنية الكون تصويرا لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي"، ولعل من بين مناهج البحث العلمي هنا، هو المشاهدة الميدانية والتجربة داخل الواقع المعيش، فليس التصورات الاستنباطية والتأملية هي مصدر المعارف والأفكار، بل على العكس من ذلك لابد من النزول إلى الميدان لبناء الأفكار، بهذا فكل ما يجعل للفكرة معنى كونها ذات نتائج عملية تترتب على تنفيذها، أما إذا كانت أمامك عبارة لا تعرف كيف تحولها إلى تجربة حسية كانت تلك العبارة بغير معنى، ولعل هذا هو الأساس المنطقي والمتودولوجي الذي بني عليه الفكر البراغماتي عامة، حيث حاولت إحداث قطيعة مع الفكر الفلسفي المثالي التقليدي، وخاصة الفلسفة الألمانية في شخص هيجل، رغم التأثر الذي كان ملحوظا به في مرحلة تأسيس الفكر البراغماتي، غير أنه

ظهر إحساس لدى رواد الفكر البراغماتي بضرورة تجديد العقلانية التقليدية والتجريبية الكلاسكية، حيث تبين ما يعتريهما من نواقص، فلم يعد التأمل العقلي الخالص كما كان مع ديكارت أو في مثالية هيجل، ولا حتى من بعد مع التوفيقية الكانطية (كانط)، بل حاولت البراغماتية إعادة الاعتبار للواقع من خلال تمحيص الفكرة واقعيا وما يقدمه المعنى من منافع عملية مباشرة. حيث يقول **"وليام جيمس"** في ذلك: إن الأفكار التي ينبغي أن نعتبرها صحيحة(...)، لهي تلك التي تقول لنا أي نوع من الوقائع نافع لنا وأيها ضار بالنسبة لنا، ينبغي أن نتوقع أو ننتظر أن هذه الأفكار، هي أول ما يجب على الإنسان السعي لإكتسابه. هنا يظهر أن امتلاك الحقيقة عوض أن يكون غاية في ذاته، يصبح وسيلة مقدمة يتوصل بها إلى إشباع حاجات حيوية أخرى"(W.James , 1968, p151).

إن البراغماتية إذن هي نمط معاصر من التفكير الفلسفي أحدث قطيعة ابستمولوجية إلى حد ما مع أنماط التفكير الفلسفي التقليدي، سواء العقلانية الكلاسيكية أو التجريبية الاختبارية الكلاسيكية كذلك، حيث وجدت في الولايات المتحدة الأمريكية أتباعا وأنصارا، بفعل الظروف والأحداث التي عاشتها أمريكا في تلك اللحظة، إن هذا الفكر الجديد نبع من رحم المجتمع الأمريكي، دون نسيان التأثيرات الخارجية في ذلك. رغم اتفاق مؤسسيه الأوائل "بيرس، جيمس، دوي" على مضمون البراغماتية والذي يربط الفكرة بالنتيجة، إلا أنهم اختلفوا حول النتائج العملية التي تعد مرضية وبالتالي معيارا للصدق والصحة. إذا كان" بيرس" وجيمس" بشكل أكبر ربطا الفكر والمعرفة بالنافع، حيث قال "جميس "في ذلك: الحقيقي هو النافع"، أما ديوي" بحث بشكل أخر في كيفية استثمار هذا الفكر في مجال التربية والديمقراطية، ونعلم بشكل كبير الإسهامات الكبرى لديوي في مجال التربية والديمقراطية، حيث يعتبر من أكبر رواد فلسفة التربية. فالبراغماتية كما قدمها"ديوي" هي النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وموادها إنما تتحدد في حدود الاعتبارات العملية أو الغرضية؛ فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الخالصة أو المجردة(محمد مهران رشوان، 1984، ص41)، وبهذا المعنى فهي اتجاه-كما سبق القول معنا- يقف مخالفا لركائز وغايات الفلسفات التأملية والعقلية الخالصة، ويجعل من الاعتبارات العملية أساسا له. فهي بهذا المعنى تنطلق من الواقع لتغير العالم، وليس الانطلاق من فرضيات لبناء نظريات تفسر الواقع، وهنا يمكن أن نستعير القول الشهير لدى "كارل ماركس" الذي يقول فيها:" كل الناس يهتمون بتفسير الواقع، ولكن أنا أهتم بتغير الواقع".

إن هذا الإختلاف حول النتائج التي تعد معيارا للصدق والمنفعة، دفعنا إلى ضرورة تبيان بعض أنواع الفلسفة البراغماتية حسب زاوية نظر روادها، فمثلا يمكن أن نتحدث عن:

البراغماتية الإنسانية: وترى أن كل ما يحقق الأغراض والرغبات الإنسانية فهو حق وصدق، وقد أخذ بهذا المنحى"وليام جيمس" وخاصة في كتاباته حول الأخلاق والدين.

البراغماتية التجريبية: وترى أن الحق هو ما يؤدي إلى عمل، بمعنى التحقق على الواقع أو التحقق التجريبي.

البراغماتية الإسمية: هي عبارة عن صورة فرعية، للبراغماتية التجريبية، وترى أن نتائج الأفكار هي ما تتوقعه في صورة وقائع جزئية مدركة في الخبرات التي تحدث في المستقبل.

البراغماتية البيولوجية: أو بعبارة أخرى الرؤية البيولوجية للبراغماتية، وهي ترتبط بشكل كبير "بجون ديوي" وترى أن الفكر إنما يهدف لمساعدة الكائن العضوي ليتوافق مع بيئته، فالتأقلم والتكيف الناجح المؤدي إلى البقاء والنمو هو بمثابة المعيار على صدق الأفكار.

إن هذا التنوع على مستوى الغايات المشكلة للفلسفة البراغماتية يطرح من جهة ابستمولوجية وميتودولوجية ضرورة البحث والغوص في أصول هذه الفلسفة رغم صعوبة الأمر، لكن المتأمل لتاريخ البراغماتية كفكر فلسفي ظهر في أمريكا يمكن له أن يحدد بشكل جلي بعض منابعه الفكرية، وفي هذا الإطار يطرح المهتمين بالفكر البراغماتي إشكالية فلسفية تتعلق بصعوبة تحديد هوية البراغماتية، بمعنى أخر هل الفلسفة البراغماتية فلسفة أمريكية نابعة من رحم المجتمع الأمريكي؟ أم فلسفة لها جذورها التاريخية في الفكر الفلسفي القديم والحديث؟ ومحاولة منا الإجابة عن السؤال السابق نتقدم ببعض أصول الفلسفة البراغماتية في ما يلي:

أصول فلسفية: حاول بعض المهتمين إظهار أصالة الفلسفة البراغماتية، وذلك بإرجاعها إلى كثير من الفلاسفة بدءا بفلاسفة اليونان، مرورا بالفلسفة الحديثة وصولا إلى فلاسفة الفترة المعاصرة.

1.**السفسطائية**: ترك هذا التيار أثرا كبيرا في لحظة زمنية في الفكر اليوناني، حيث أقر السفسطائيون وخاصة كل من "بروتاغوراس وجورجياس"، بأن الخبرة الفردية الحسية تختلف من فرد إلى فرد أخر، لذلك كان لابد لهم من أن يصلوا إلى القول بأن الواقع هو ما يبدو عليه الفرد، وهذا عبر عنه "بروتاغوراس" قائلا: "الإنسان مقياس كل شيء". حيث شكل هذا القول مبدأ وركيزة أساسية في الفلسفة البراغماتية خاصة مع "وليام جيمس".

2. أرسطو: يعتبر أرسطو من الفلاسفة الكبار في الفلسفة بشكل عام، حيث ركز على الحس والتجربة بوصفها مكونا ضروريا في مكونات المعرفة، حيث تم إعادة الإعتبار للحس المشترك الذي أحدث "افلاطون" معه قطيعة عن طريق نظريته التأملية المتعالية.

3. الابيقورية: عندما نتحدث عن ابيقور، فإننا نتحدث عن مدرسة مهمة في تاريخ الفلسفة اليونانية وبعد ذلك في الفلسفة البراغماتية، خاصة عندما اعتبر ابيقور أن الحقيقة ليست مطلقة، بل تكمن أهميتها في إصلاح المعتقد بها وذلك بتخفيف الألم والمعاناة إلى أدنى حد والوصول بدل ذلك إلى أقصى حد من اللذة، وبالتالي فالتفلسف هو نشاط عملي عبر اختيار الوسائل المؤدية لتلك الغايات، وهذه المدرسة تعد بمثابة أوائل المبشرين بالبراغماتية.

لا ندعي أننا وقفنا أمام كل الأصول الفلسفية للفكر البراغماتي، لأن المقام هنا لا يسمح لنا بذلك، فالفكر البراغماتي له جذور فلسفية وكذا علمية عميقة، غير أن هناك من يرى أن الفلسفة البراغماتية فلسفة أمريكية خالصة، لذلك سنشير هنا وبشكل مختصر لذلك.

البراغماتية فلسفة أمريكية:

تعرفنا فيما سبق على بعض الجذور الفلسفية للفلسفة البراغماتية وخاصة في فلسفة اليونان، لكن إلى جانب ذلك يرى العديد من المهتمين بالفكر البراغماتي، أن هذا الأخير كان انعكاسا للحياة الأمريكية خلال القرن 19م، وذلك لما عرفته الحياة الأمريكية من تحولات وإعلاء لقيمة الفرد ومصالحه إلى أقصى درجاتها؛ فهي تعبر عن نظام يحرك الرأسمال والمادة. كما يرتبط ذلك بالتحولات الصناعية التي عرفتها الولايات المتحدة في تلك الفترة، حيت تم الرفع من مستوى

الفردانية على حساب العلاقات الحميمية والعاطفية، أو بمعنى أخر العلاقات الثانوية على حساب الأولية. وهذا النجاح العملي في دنيا الواقع الأمريكي أساس نظرية الحقيقة البراغماتية(مهران رشوان، 1984، ص74).

إن كل هذه التحولات التي عرفتها الولايات المتحدة الأمريكية خلال أواخر القرن التاسع عشر أثرت بشكل ملحوظ للعيان على جميع أنماط الفكر سواء منها الفلسفي أو العلمي، ولعل هذا هو ما سيؤدي إلى الاهتمام المتزايد من طرف الجامعات الأمريكية بالواقع؛ من خلال دراسته ومقاربته بمختلف النظريات والمقاربات العلمية، هذا الأمر كله يعكس زاوية نظرا المفكر الأمريكي الذي توجه بشكل كبير إلى الاهتمام بالتفرد والفرد في خلاف الجماعة أو الكل، بل حاولت معظم الجامعات الأمريكية إعداد تصورات نظرية ومنهجية للنزول إلى الميدان باعتباره مصدر المعطيات، ولعل هذا كله هو ما سيسهم وفق روح براغماتية في التقعيد لفرع مهم في علم الاجتماع وهو علم الاجتماع الحضري في شخص مدرسة شيكاغو.

ثانيا. مدرسة شيكاغو: السياق والخصائص:

لا أحد من المهتمين بالفكر السوسيولوجي ينكر أن السوسيولوجيا كعلم مستقل ظهر في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، غير أن هذا العلم حديث النشأة سيشهد بعد ذلك ولادة جديدة من رحم الولايات المتحدة الأمريكية، حيث شهدت هذه الأخيرة تحولات مهمة مست كل البنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، هذا الأمر سيؤثر بشكل واضح على ظهور علم جديد يستمد جذوره وأساسه وروحه من أوروبا، لكن بطابع أمريكي خاص، إنه علم الاجتماع الحضري في شخص مدرسة شيكاغو، حيث أصبحت الجامعات مع هذه المدرسة ذات دور فعال في الحث على انجاز البحوث السوسيولوجية الميدانية التي تهم المدينة والتحضر وبإشكالاته المختلفة.

يمكن القول بأن علم الاجتماع الحضري قد استطاع تحويل المدينة بظواهرها إلى موضوع سوسيولوجي قائم الذات مع مدرسة شيكاغو، حيث كانت هذه الأخيرة امتدادا لبداية الاهتمام السوسيولوجي بالمدينة، الذي يمكن تشخيصه مع ثلة من ركائز الفكر السوسيولوجي وخاصة كل من دوركايم في حديثه عن التضامن الآلي والتضامن العضوي، إضافة إلى تقسيم العمل، دون نسيان "ماكس فيبر" الذي خصص كتابا لموضوع المدينة والتحضر، أما الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني "جورج زيمل" فقد قدم دراسة جد معمقة للحياة داخل المدينة، حيث تمركزت بحوث معظم رجالاتها على ما تعيشه المدن الأمريكية من تحولات في مجال الهجرة، التحضر السريع، العلاقات العرقية، الإجرام، التنقل...الخ.

من المؤكد أن نشأة هذه المدرسة، لم تكن من فراغ؛ بل هناك من جهة ما عرفته الولايات المتحدة الأمريكية من تحولات سوسيومجالية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهناك من جهة أخرى ما طرأ على ظروف العمل الجامعي الأكاديمي والبحث السوسيولوجي على الخصوص من تحديث وتجديد في الولايات المتحدة الأمريكية(المالكي ع.الرحمان،2015، ص66).

إن هذا التوجه الجديد الذي أخذت به الجامعة الأمريكية لم يكن وحده هو الفاعل أمام تطور مدرسة شيكاغو وبالتالي علم الاجتماع الحضري، بل ساهم الفكر السوسيولوجي الأوروبي السائد

أنداك(دوركايم، فيبر، زيمل)، كما كان للفكر الفلسفي البراغماتي السائد في أمريكا آنذاك تأثير واضح للعيان على توجهات وأهداف، بل ومناهج مدرسة شيكاغو، حيث لا أحد ينكر مدى مساهمة الفكر البراغماتي في التقعيد وتوحيد غايات وأهداف مدرسة شيكاغو.

إن هدفنا كما قلنا سابقا من هذه الورقة ليس الوقوف على كل المؤثرات التي ساهمت بشكل أو بأخر في مدرسة شيكاغو، وإنما غاياتنا تبيان الدور الحاسم الذي لعبه الفكر الفلسفي البراغماتي الأمريكي في تكوين وإرساء لبنات مدرسة شيكاغو.

المحور الثاني. الفلسفة البراغماتية ومدرسة شيكاغو: أية علاقة؟:

جاء في ذكرنا سابقا، أن الفكر الفلسفي البراغماتي ترعرع في أحضان الولايات المتحدة الأمريكية والذي يعبر لا محال عن واقع الحياة الأمريكية وما كانت عليه في تلك الفترة، هذا الواقع سيؤثر بشكل كبير على الفكر السوسيولوجي السائد فيها آنذاك.

إن الفلسفة البراغماتية تنطلق من أطروحة مفادها أن الأفعال الإنسانية تتضمن ثلاثة أبعاد أساسية لا يمكن الفصل بينها وهي: البعد البيولوجي، البعد السيكولوجي، البعد الأخلاقي، إن الفرد أثناء قيامه بأي فعل من الأفعال يسعى إلى تحقيق غاية ما ويستشعر أثناء انجازه لفعله أحاسيس وانعكاسات(المالكي ع.الرحمن،2015، ص78)، ولعل هذه الروح البراغماتية هي التي ستشكل الإطار المرجعي النظري والميتدولوجي لعلم الاجتماع الحضري الأمريكي، إن الفلسفة البراغماتية كمرجعية نظرية هي التي ستساعد في حل المشاكل الاجتماعية والتربوية والاقتصادية والأخلاقية في مجتمع أمريكا، لذلك فمعظم رواد الفلسفة البراغماتية اعتبروا بأن المشاكل الاجتماعية سواء الحضرية أو غيرها؛ يجب التعامل معها بمناهج علمية ذات طابع واقعي وليس تأملي خالص، هذا هو الذي بدا جليا في مساهمات"جون ديوي" مثلا في مجال التربية والتعليم.

يبدو أن الفكر البراغماتي كفكر فلسفي ربط الفلسفة بالفعل؛ عبر الانخراط في حياة الناس والمعيش اليومي، وليس التأمل المجرد والخالص كما كان مع الفلسفة الألمانية المثالية مثلا، بل الفلسفة هي التي يجب أن تعيش في الواقع، هي التي تكون ذات التأثير الواضح على الحياة المعيشية، ولعل هذا التوجه الميداني لهذه الفلسفة هو ما ستأخذ به مدرسة شيكاغو بشكل واضح؛ فالفيلسوف حسب البراغماتية هو ذاك الذي ينخرط في حياة مدينته؛ يعيش همومها ويهتم بأمور بيئته، وبالعمل الاجتماعي الذي يرمي إلى التغير، ويقول في ذلك"اندرو ريك": إن زعماء مدرسة شيكاغو في مطلع القرن العشرين قد جعلوا من البراغماتية الفلسفة الاجتماعية للديمقراطية" (الان كولون، 2012، ص19)، وهكذا أصبحت البراغماتية أداة اجتماعية لكونها جد نشطة في حركة الإصلاح الاجتماعي،إذ إن إدراك الأفراد يتمثل من خلال فهم الأنشطة الاجتماعية المترابطة لأفعالهم وسيروراتها الاجتماعية.

هكذا إذن يبدو لنا جليا مدى التأثير الواضح للفلسفة البراغماتية على السوسيولوجية الحضرية في شخص مدرسة شيكاغو، فمعظم العلماء الأوائل لهذه المدرسة جعلوا من الفلسفة البراغماتية مرجعا نظريا يساعد في فهم وحل المشاكل والتحديات التي تعاني منها مدينة شيكاغو. فمن المعروف أن مدرسة شيكاغو جعلت الميدان مركزا مهما لها، بل أخذت من المدينة مختبرا

اجتماعيا ومجاليا لإجراء بحوثها، حيث استطاعت هذه المدرسة أن تقدم سلسلة واسعة من الدراسات النظرية والإمبريقية عن الحياة الحضرية، التي ارتكزت أساسا في مدينة شيكاغو بفعل الحركة البشرية المهمة التي عرفتها نتيجة ارتفاع معدلات الهجرة القادمة إليها من كل بقاع العالم، وما صاحب ذلك من مشاكل راحت ضحيتها العديد من الأجناس البشرية، فجاءت هذه المدرسة بجامعة شيكاغو في قسم علم الاجتماع الذي كان تحث رئاسة "روبرت بارك Robert Ezra Park"، الذي ألح على ضرورة النزول إلى الميدان لجمع المعطيات من خلال الملاحظة الشخصية الميدانية، حيث عبَر عن ذلك بنفسه قائلا: "عزمت على أن أخوض التجربة بنفسي...أن أفهم بنفسي مباهج الحياة ومآسيها(خلف مصطفى عبد الجواد،2002، ص264)، وفي هذا الصدد أشار "روبرت بارك" إلى أن المدينة ليست فقط مجالا تتجسد فيه الشوارع والمباني ووسائل المواصلات...ولا كمجموعة نظم إدارية ومصلحية من مدارس ومستشفيات ومحاكم...بل إنها فوق ذلك كله، تجسيد لنمط ثقافي منظم لعادات وسلوكيات متجذرة بين عناصر المجموعات المتحضرة(سلام محمد شكري، 2010، ص21)، وفي ذلك كتب عام 1916 للمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع مقالا مهما يحمل عنوان "المدينة: اقتراحات لدراسة السلوك الإنساني في المحيط المديني"، حيث شدد فيه على ضرورة دراسة الحياة المدينية وثقافتها بواسطة عدد معين من التقنيات والوسائل الملائمة لظاهرة وموضوع الدراسة، حيث اعتبر المدينة بمثابة مكانا مناسبا لدراسة الحياة الاجتماعية، بمعنى أن فهم المدينة ودراستها وتحليلها، يعتبر عملا علميا وميدانيا لفهم ما يميز المجتمع الحضري المعاصر من مشاكل وتحديات، فالحياة في المدينة حسبه تُنتج طرقا جديدة للحياة ونماذج جديدة من التعاملات، وأنه على علماء الاجتماع أن يكتشفوا هذه الأشكال الجديدة من مدنهم بنفس الطريقة التي درس بها علماء الأنثربولوجيا القبائل البدائية(السيد عبد العاطي، 1993، ص56)، وفي نفس الاتجاه والمنحى سار معظم الرواد الأوائل لمدرسة شيكاغو "ارنست برجس، ولويس وريت..الخ"؛ حيث جعلوا من فلسفتهم فلسفة ميدانية، أو إن صح التعبير فلسفة الفعل والعمل، ولعل هذا ما يعكس لنا بشكل جلي التوجه الذي أخذت به غالبية جامعات أمريكا، فجعلت من العمل أساسا لها، وهذا ما يعكس روح الفلسفة البراغماتية. حيث أصبح التدخل في معظم مناحي الحياة وكل ما يجدي نفعا أساس البحث العلمي، وليس التأمل العقلي الخالص كما كان سائدا في أوروبا خلال القرن التاسع عشر والعشرين. إن هذا التأثير الواضح للفلسفة البراغماتية على توجه مدرسة شيكاغو يمكن تجسيده على شكلين أو نوعين:

أولا. على مستوى الغاية والأهداف: حيث أصبحت أهداف مدرسة شيكاغو أهدافا تدخلية نفعية بمعنى الكلمة، حيث تبحث فيما يمكن أن يجدي نفعا لأمريكا بغية تجاوز ما أصبحت تعاني منه معظم مدنها في تلك اللحظة.

ثانيا: على المستوى المنهجي الميتدولوجي، فإذا كانت الفلسفة البراغماتية تأخذ من الواقع مصدرا لها، فنفس الأمر مع مدرسة شيكاغو، جعلت الميدان مختبرا للأبحاث ومصدرا للمعطيات الأمبريقية التي ستسهم لا محال في بناء المجتمع المنشود، حيث أصبح الفرد مصدر المعلومة وغايتها.

إن هذه المستويات والأشكال وغيرها هي التي دفعتنا إلى القول بأن الفلسفة البراغماتية كفكر فلسفي يستمد روحه من الأصول الفلسفية الكبرى ومن واقع أمريكا، لها تأثير واضح للعيان على التوجه العملي والنظري لمدرسة شيكاغو، لذلك صح القول بأن الفلسفة البراغماتية شكلت المرجعية النظرية الفلسفية لعلم الاجتماع الحضري الأمريكي في شخص مدرسة شيكاغو، دون نسيان بطبيعة الحال العديد من المؤثرات الأخرى.

خلاصات واستنتاجات:

إن آخر ما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذه الورقة ؛ أن الفلسفة البراغماتية من بين أهم المذاهب الفلسفية الأمريكية التي كان ولازال لها تأثير واضح على مستوى الفكر الإنساني عامة وفي معظم مجالاته. ولعل هذا التأثير سيكون بشكل كبير على مدرسة أخرى تولدت من رحم المجتمع الأمريكي؛ ويتعلق الأمر بمدرسة شيكاغو التي كان لها تأثير واضح على مستوى الفكر السوسيولوجي عامة وعلم الاجتماع الحضري خاصة، وذلك التأثير واضح للعيان على مستوى الجانب المنهجي أولا، ثم على مستوى الأهداف والغايات التي تهدف إليها أبحاث مدرسة شيكاغو، هكذا إذن يبدو بأن كل من الفلسفة البراغماتية وعلم الاجتماع الحضري في شخص مدرسة شيكاغو تربطهما علاقة قوية؛ علاقة مجالية أولا بكونهما ظهرا في تراب أمريكية، وعلاقة ابستمولوجية وميتودلوجية ثانيا؛ بكونهما يهدفان معا إلى محاولة فهم الحياة الأمريكية من خلال معظم جوانبها باستعمال أدوات منهجية أكثر واقعية وميدانية.

قائمة المراجع:

1. أبو عباس عبد الإله(1980)، "أزمة المدينة العربية"، ط1، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت.
2. أنتوني غدنز(2001)، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصياغ، ط4، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، بيروت.
3. التير مصطفى عمر(1995)، "اتجاهات التحضر في المجتمع العربي"، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، ليبيا.
4. السيد عبد العاطي(1993)، "علم الاجتماع الحضري، بين النظرية والتطبيق مشكلات نظرية"، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
5. الشرقاوي محمد عبد الله(1991)، "في الفلسفة العامة-دراسة ونقد"-، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان.
6. المالكي عبد الرحمان(2015)،"الثقافة والمجال دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب"، ط1، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، كلية الآداب فاس، المغرب.
7. بوشنفاتي بوزيان(1988)، في التحضر والثقافة الحضرية بالمغرب دراسة في البناء الإجتماعي لمدن الصفيح، ط1، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، المغرب.
8. ديوي جون (1960)، البحث عن اليقين، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك.
9. زكرياء إبراهيم(1986)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ج1، مكتبة مصر، القاهرة.
10. عزمي إسلام(1980)، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، ط1، وكالة المطبوعات، الكويت.
11. كرم يوسف(1969)، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، دار المعارف، مصر.
12. جون سكوت(2009)، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة عثمان محمد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

13.سهيل إدريس(2009)، المنهل قاموس فرنسي-عربي، ط 40، دار الأدب للنشر والتوزيع، لبنان.
14.ماكس فيبر(2001)، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة صلاح هلال مراجعة محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر.
15.مهذان أمحمد(2013)، نظريات سوسيولوجية معاصرة، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.